**السنة الثالثة /أدب**

**قضايا النص الشعري القديم**

**أ د فريدة مولى**

**المحاضرة السادسة: الزهد والتصوف في الشعر العباسي**

**انتشر في البيئة العباسية المجون واللهو والزندقة، وفي المقابل انتشر الزهد والتنسك والتقشف، ففي الوقت الذي كانت فيه الحانات ومجالس اللهو تكتظ بالمجّان والشذّاذ والعابثين الملتفين حول الجواري والغلمان يعيشون حياة لاهية، كانت المساجد ودور العبادة تكتظ بالزهّاد والنسّاك والوعاّظ الذين رفضوا الدنيا ومغرياتها مقيمين حلقات دروس وعظية يذكّرون فيها الناس بفناء الحياة وخلود الآخرة وما يينتظر المتّقين من ثواب والعاصين من عقاب.**

**1-مفهوم الزهد وعوامل نشأته:**

1. **الزهد لغة: الزهد هو القلة ، فالشيء الزهيد هو الشيء القليل، وهو أيضا عدم الرغبة إذ يقال زهد في الشيء بمعنى لم يرغب فيه، ويقال أيضا زهد في الشيء وزهد عن الشيء بمعنى أعرض عنه وتركه، ويقال زهد في الدنيا أي ترك حلالها مخافة حسابه، وترك حرامها مخافة عقابه.**
2. **أما الزهد اصطلاحا فهو الانصراف عن الشيء احتقارا له وتصغيرا لشأنه للاستغناء عنه بخير منه، وهو أيضا حنين الروح إلى مصدرها، لمعرفة الخالق عن طريق الزهد في الدنيا ومتاعها وتفضيل نعيم الآخرة عليها.**
3. **نشاة الزهد: نشأت حركة الزهد منذ عهد الرسول (ص)، إذ كان الزهد يمثل اتجاها سلوكيا مضمونه التقشف والانقطاع عن الدنيا، والاتجاه إلى الله عن طريق العبادات المعروفة في الدين، فقد كانت حياة الزهد والتعبد متجسدة في حياة الرسول (ص) التي تمثل أحسن نموذج على ذلك التوجه ،وقد عبر الرسول الكريم(ص)عن ذلك بقوله:"عرضت عليّ الدنيا فأبيتها" إذ عزف سيد العالمين عليه الصلاة والسلام عن الدنيا وزخرفها،وفضّل عليها الآخرة وهو القائل:" لي مع الله وقت لا يسعني فيه معه شيء" ،وتعد الأحاديث النبوية الكثيرة المروية عن الرسول (ص) بمثابة شواهد تؤكد نشأة الزهد في بيئة إسلامية، وبالإضافة إلى الأحاديث الشريفة نجد مجموعة من النصوص القرآنية تحث المسلمين على التقوى وهجر نعيم الدنيا وزخرفها وغرورها، ورفع قيمة الآخرة ومن ذلك قوله تعالى:"المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا"(الكهف،آ46)، وكلمة الزهد أيضا وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى:"وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين "(يوسف،آ20). كما تنبغي الإشارة إلى أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا من الزهاد ومنهم (عمر بن الخطاب) الذي جاءه رسول "كسرى" ووجده نائما على الأرض فتعجب من أمر ملك المسلمين الذي لم يجده في مظهر من مظاهر العظمة والجاه، مما يؤكد سير الصحابة على نهج النبي الكريم. وقد ارتبط الزهد من جهة بالقرآن الكريم والسنة، ومن جهة أخرى بالأحداث السياسية التي تتابعت بعد مقتل الخليفة "عثمان بن عفان".**
4. **عوامل نشأة الزهد وانتشاره: تضافرت عوامل كثيرة–سياسية،اقتصادية ،عصبية- ساعدت على انتشار الزهد في المجتمع الإسلامي، وقد كان في العصر الأموي حركة روحية مضادة لتيار اللهو والترف والإسراف في الملك خاصة عند بني أمية ، ويحمل الزهد في أدبه ثورة هادئة تبصّر الناس بدينهم وترجع إلى ما كان عليه الرسول (ص)والخلفاء الراشدين من بعده، تحتقر شأن الدنيا ومتاعها الزائل وترشد الناس إلى ما هو خير وأبقى ، وازداد انتشار حركة الزهد من حكم بني أمية إلى حكم العباسيين و عرفت تطورا وتحولا في القرنين الثاني و الثالث الهجريين حيث أصبحت تيارا فكريا وفلسفيا وأدبيا وروحيا تجسّد في حركة التصوف التي بلغت ذروتها في نهاية القرن الثالث حيث انتهى التصوف إلى أوائل أقطابه في هذا القرن ك"الجنيد البغدادي" الذي وضع له أصولا وقواعد ومعالم. ومن العوامل الأخرى التي غذّت انتشار الزهد وتوسعه النظام السياسي في الحكم الذي تحول عند الأمويين إلى نظام وراثي يتوارثه الأبناء بعدما كان يقوم على اختيار الحاكم الصالح بالشورى أو بالتعيين دون النظر إلى النسب أو القرابة، وهذا النظام الجديد أغضب الكثير من المسلمين لخروجه على ما كان عليه السلف الصالح في الحكم، لذلك كانت الحياة السياسية ثائرة، فانشقت الأمة الإسلامية على نفسها خاصة بعد اغتصاب "معاوية بن أبي سفيان للخلافة"، أين ظهرت الأحزاب التي تعارض الحكم الأموي، كالزبيريين والشيعة والخوارج ، وكان الصراع بين هذه الأحزاب على أشدّه وشهدت الأمة الإسلامية حروبا ساخنة تعرض فيها كبار الصحابة للقتل والتمثيل، وذلك طمعا في الحكم والسيطرة. وهذا ما دعا الزهاد إلى انصرافهم عن الدنيا وابتغاء الحق حيث كان، وكان أيضا للعامل الاقتصادي الأثر البالغ في حركة الزهد بظهور الطبقية وانتشار الفقر واللهو والمجون في المجتمع الإسلامي خاصة بعد انفتاحه على الروم والفرس.**

**2-شعر الزهد:**

**كان شعر الزهد أكثر اتصالا بحياة العامة من شعر الخمر والمجون، وكانت الفئة الزاهدة في المجتمع من شعراء وعامة تعيش حياة دينية مستقيمة يشيع في جوانبها التنسك والعبادة، وقد كانت تدعو إلى الزهد ورفض متاع الدنيا الفانية والإقبال على الآخرة الخالدة والتزود بزاد التقوى والصلاح والقناعة، يقول في ذلك "علي بن الجهم":**

**وعاقبة الصبر الجميل جميلة \*\*\* وأفضل أخلاق الرجال التفضّل**

**وما المال إلاّ حسرة إن تركته\*\*\*وغنم إذا قدّمته متعجّل**

**وللخير أهل يسعدون بفعله\*\*\*وللناس أحوال بهم تتنقّل**

**ولله فينا علم غيب وإنّما\*\*\*يوفق منّا من يشاء ويخذل**

**ومن الشعراء الزهاد الذين اشتهروا في هذا العصر" مالك بن دينار" المحدّث الناسك الذي كان يتحدث في مجالسه عن الموت والقبر، يقول في ذلك:**

**أتيت القبور فناديتها\*\*\*فأين المعظم والمحتقر**

**وأين المذّل بسلطانه \*\*\*وأين المزكّي إذا ما افتخر**

**تفانوا جميعا فما مخبر\*\*\*وماتوا جميعا ومات الخبر**

**ويبقى أبو العتاهية شاعر الزهد الأول في العصر العباسي، بل في كل العصور، ويعدّ أول من طرق باب الوعظ والتزهيد في الدنيا لمعارضته معاصريه ممن انغمسوا في ملذات الحياة والمجون والزندقة، ولعلّ هذا النوع من الشعر الوعظي أدى إلى ظهور شعر ينتقد الأوضاع الاجتماعية ويدعو إلى إصلاح الأوضاع المتردية التي ساعد على ظهورها فساد الحكم في ذلك الوقت.**

**ومن زهديات أبي العتاهية قوله:**

**الموت باب وكل الناس داخله\*\*\*يا ليت شعري بعد الباب ما الدار**

**الدار جنة خلد، إن عملت بما\*\*\*يرضي الإله وإن قصّرت فالنار**

**ومن زهدياته مشفقا وناصحا وواصفا حياة الزاهد:**

**رغيف خبز يابس\*\*\*تأكله في زاويه**

**وكوز ماء بارد \*\*\*تشربه من صافيه**

**وغرفة ضيقة \*\*\*نفسك فيها خاليه**

**ومسجد بمعزل \*\*\*عن الورى في ناحيه**

**معتبرا بمن مضى\*\*\*من القرون الخاليه**

**خير من الساعات في\*\*\*فيء القصور العاليه**

**تعقبها عقوبة \*\*\*تصلى بنار حاميه**

**فاسمع لنصح مشفق\*\*\*يدعى أبا العتاهيه**

**كما كان يدعو في شعره إلى التدبّر والتفكّر في مصير الأولين وأخذ العبر، يقول:**

**ما لنا لا نتفكّر \*\*\*أين كسرى وأين قيصر**

**أين من جمع الما\*\*\*ل مع المال فأكثر**

**أين من كان يسامي \*\*\*بغنى الدنيا ويفخر**

**قد رأينا الدهر يفني\*\*\*معشرا من بعد معشر**

**ليس يبقى ذو يسار\*\*\*لا ولا من كان معسر**

**3-الخصائص الفنية لشعر الزهد:**

**-غلبة الطابع الوعظي والدعوة إلى الندم على ما فات والتذكير بالآخرة**

**-النزعة الدينية التأملية والاقتباس والتضمين من النصوص الدينية**

**-استخدام أسلوب الإقناع، الترغيب والترهيب**

**-الإكثار من توظيف الصور البيانية والإسراف في استعمال المحسنات البديعية**

**ومع اتساع موجة الزهد والتنسك أخذت تظهر مقدمات نزعة التصوف بظهور متصوفة وشعراء وضعوا الأسس الأولى للقصيدة الصوفية العربية..**

**4-مفهوم التصوف ونشأته:**

**التصوفة لغة** **: أثار مصطلح "صوفي/تصوف" جدلا واسعا بين الباحثين حول أصل اشتقاقه ومفهومه، إذ اضطربت الآراء واختلفت حول أصل كلمة صوفي، وقد أوردت كتب التصوف القديمة هذه الآراء، ولكن المتأمل في الاشتقاقات اللغوية المختلفة لكلمة صوفي/متصوف فإنه سيجدها تدلّ على عدة معان كالصفو والصفاء لأن المتصوف يسعى إلى تزكية نفسه وتصفيتها وتطهيرها من أدران الجسد وشوائب المادة والحس، كما تشير الكلمة إلى أهل الصفة وهم الفقراء الذين يسكنون صفة المسجد النبوي، وقد كانت حياتهم تقوم على الكفاف والتقشف والتزهد والعبادة الخالصة، لكن أكثر الآراء توافقا هي تلك التي ربطت اللفظة بلبس الصوف لأنه لباس الرسل والأنبياء والزهاد والمتنسكين وهو أيضا لباس أهل الخشونة والفقر لذلك كان أهل الصفة يرتدون جباب الصوف،ولباس الصوف كان منذ القدم من مظاهر التقشف ولباس التخشن ودليل التواضع وعلامة الكفاف وفيه إذلال للنفس وترويضها على الخشن من الحياة والزهد في نعيمها وزينتها.**

**التصوف اصطلاحا: يعرف "ابن خلدون" التصوف اصطلاحا بأنه:"العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة.ومن خلال هذا التعريف يتضح أن التصوف تجربة روحية ومجاهدة نفسية تقوم على الزهد في الحياة وترك الدنيا الواهمة الحالمة والسعي إلى تحقيق الوصال مع الواحد الأحد لينال الصوفي شرف القرب من الخالق والمعية.**

**وقد وردت في كتب التصوف القديمة تعاريف لا حصر لها للتصوف وعلى ألسنة أقطاب الصوفية وشيوخها ومنها تعريف "الجنيد البغدادي" شيخ الطريقة وإمامها: "هو تصفية القلب عن مواقف البرّية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بالعلوم الحقيقية واستعمال ما هو أولى على الأبدية ونصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة و اتباع الرسول (ص)في الشريعة".ويعرفه في موضع آخر بقوله :"التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة.**

**إن الجامع بين التعاريف كلها، أن المتصوف هو الذي يتوجه إلى الله تعالى توجها عميقا، يقطع صلاته بجميع الخلائق، ويعتزل الملذات ويتفرغ إلى الخالق، وذلك رغبة في الوصول إلى معيته وحضرته، ويقوم التصوف إضافة إلى الفناء في حب وعشق الذات الإلهية،على مجموعة من القواعد الأساسية التي يجب أن تتوفر في المتصوف،وهذه القواعد متماشية لتعاليم الدين ومسايرة للشريعة وهي:**

**- صفاء النفس ومحاسبتها- قصد وجه الله -التمسك بالفقر والافتقار- توطين القلب على الرحمة والمحبة -التجمل بمكارم الأخلاق التي بعث الله بها النبي لإتمامها.**

***5-بين الزهد والتصوف***

**إن الزهد في حقيقته عقيدة وعمل، فكر وسلوك،سلوك إنساني يخلص النفس بالمجاهدة عماّ يشغلها في الدنيا ويسمو بالروح لتنعتق من أثقال المادة التي هبطت بها إلى الأرض، فيؤثر الزاهد آخرته على دنياه، وإيمان الزاهد يقوم على أساس الرغبة والرهبة،الرغبة فيما عند الله عزّ وجلّ والرهبة من جبروته وانتقامه،الرغبة والطمع في الجنة ونعيمها والرهبة والخوف من جهنم وأهوالها، والزاهد الحق هو من كانت الدنيا تحت يديه يملك منها ما يريد ثم يزهد في هذا الملك وينصرف عنه وعن الدنيا . كما أن الزهد درجة من درجات طريق المجاهدة الروحية(مقام)، والزاهد على درجات يرتقي من درجة إلى أخرى حتى يبلغ النهاية ويتحول إلى صوفي .وبذلك يكون الصوفي أعلى درجة من الزاهد .فأقل درجات الزهد أن يعزف الزاهد عن الدنيا ولكنه يشتهيها، ويميل قلبه إلى بهجتها ولكنه يجاهد نفسه ليتجاوز ذلك. أما الدرجة الموالية فهي التي لا يشتهي فيها العبد الدنيا ولا يميل إليها ولا يحتاج إلى مجاهدة نفسه لكنه يعجب بعزوفه ويزهو به وهو مشغول بأمر زهده.أما أسمى درجات الزهد وأعلاها فهو أن لا يرى الزاهد زهده ولا يلتفت إليه لأنه يصدر من نفسه عن طبع ، يعف الدنيا طوعا ويرى أنه ما ترك شيئا من الدنيا ولا عزف عن شيء منها.**

**وهو بذلك يزهد في الدنيا لأنه راغب في الله وفي لقائه وهذه هي درجة المتصوف أو الصوفي الذي يزهد في الدنيا لا خوفا من النار ولا طمعا في الجنة إنما حبا في الله ورغبة في لقائه.**

**6-الشعر الصوفي:**

**اتخذ المتصوفة الشعر كوعاء يصبون فيه معاناتهم النفسية وتجاربهم الروحية وتصوراتهم الصوفية والفكرية، وقد تنوعت موضوعات الشعر الصوفي وأغراضه، ومن أهم الموضوعات المطروقة عند أغلبية الشعراء الصوفيين موضوع الحب الإلهي أو العشق الإلهي وتعّد "رابعة العدوية" رائدة الحب الإلهي، فهي التي سنّت سنة العشق الإلهي خالصا لربّها لا خوفا من النار ولا طمعا في الجنة تقول في ذلك:**

**كلهم يعبدون من خوف نار\*\*\* ويرون النجاة حظا جزيلا**

**أو بأن يسكنوا الجنان فيحظوا\*\*\*بقصور ويشربوا سلسبيلا**

**ليس لي بالجنان والنار حظ \*\*\*أنا لا أبتغي سواك سبيلا**

**فبعدما كانت راقصة ومغنية تابت وانتقلت إلى حياة التصوف والعبادة ،والحب الإلهي عندها عبادة صوفية وجمال عذري ونزوع إلى الخلود، ومن أروع ما أنشدت وهي تناجي حبيبها قولها:**

**أحبك حبين :حب الهوى \*\*\*وحبا لأنك أهل لذاكا**

**فأما الذي هو حب الهوى\*\*\* فشغلي بذكرك عماّ سواكا**

**وأما الذي انت أهل له \*\*\* فكشفك لي الحجب حتى أراك**

**فلا الحمد في ذا،ولا ذاك لي\*\*\*ولكن لك الحمد في ذا وذاكا**

**وتقول أيضا في الحب الإلهي:**

**فليتك تحلو والحياة مريرة\*\*\*وليتك ترضى والآنام غضاب**

**وليت الذي بيني وبينك عامر\*\*\*وبيني وبين العالمين خراب**

**إذا صحّ الودّ فالكل هيّن \*\*\*وكل الذي فوق التراب تراب**

**ولا تقل أشعار "ذو النون المصري" في الحب الإلهي أهمية وقيمة عن سابقتها، ويعدّ أول من تحدث عن الأحوال والمقامات الصوفية ، ومن أحسن ما أنشد في الحب الإلهي وهو على فراش الموت قوله:**

**أموت وما ماتت إليك صبابتي \*\*\*ولا رويت من صدقي حبك أوطاري**

**مناي المنى كل المنى أنت لي\*\*\*وأنت الغنى كل الغنى عند إقتاري**

**وأنت مدى سؤلي وغاية رغبتي\*\*\*وموضع آمالي ومكنون إضماري**

**أما في موضوع "الفناء" فقد اشتهر بأدب الفناء-شعرا ونثرا-حتى نهاية القرن الرابع الهجري كل من "السرّي السقطي، أبو يزيد البسطامي، أبو بكر الشبلي، أبو الحسن النوري وأبو منصور الحلاج الذي يعتبر من كبار المتصوفة و أنموذجا للذين استطاعوا أن يجسدوا تجربة الفناء شعرا في قالب حافل بالصور والمفاهيم الروحية، تعكس عمق تجربة الشاعر الصوفية، ويعبر عن عشقه الإلهي مشيرا إلى فنائه بقوله وهو صاحب نظرية الحلول، حلول اللاهوت في الناسوت، والحلول كما يعرفه "الحلاج هو:"حلول الطبيعة الإلهية في الطبيعة البشرية، أو حلول اللاهوت في الناسوت، ويكون عند فناء الإرادة الإنسانية تماما في الإرادة الإلهية بحيث يصبح كل فعل صادر عن الإنسان صادرا عن الله**

**يقول الحلاج في الحب الإلهي والفناء :**

**عجبت منك ومنّي \*\*\* يا منية المتمنّي**

**أدنيتني منك حتّى \*\*\* ظننت أنّك أنّي**

**وغبت في الوجد حتّى \*\*\* أفنيتني بك عنّي**

**ويضيف في أبيات أخرى:**

**لا كنت إن كنت أدري\*\*\*كيف السبيل إليكا**

**أفنيتني عن جميعي\*\*\*فصرت أبكي عليكا**

**يقول "الحلاج " في الحلول**

**مزجت روحك في روحي\*\*\*كما تمزج الخمرة بالماء الزلال**

**فإذا مسّك شيء مسّني\*\*\*فإذا أنت أنا في كل حال**

**ويقول في مقطوعة شعرية أخرى :**

**أنا من أهوى ومن أهوى أنا\*\*\*نحن روحان حللنا بدنا**

**نحن مذ كنا على عهد الهوى\*\*\*يضرب الأمثال للناس بنا**

**فإذا أبصرتني أبصرته\*\*\*وإذا أبصرته أبصرتنا**

**أيها السائل عن قصّتنا\*\*\*لو ترانا لم تفرق بيننا**

**روحه روحي وروحي روحه\*\*\*من رأى روحين حلّت بدنا**

**فهو يعبر في هذه المقطوعة عن عقيدته في الحلول ويصرّح أن روحه وروح الإله حلت في بدن واحد، فكل من يشاهده يشاهد حتما الله،**

**وقد وظف مصطلحيه (اللاهوت والناسوت) في أشعاره ليؤكد فكرة الحلول، وحلول(الله) اللاهوت في الناسوت(الإنسان)، ليبدو الله كالإنسان يأكل ويشرب، يقول :**

**سبحان من أظهر ناسوته\*\*\* سرّ سنا لاهوته الثاقب**

**ثم بدا في خلقه ظاهرا\*\*\* في صورة الآكل والشارب**

**حتى لقد عاينه خلقه\*\*\* كلحظة الحاجب بالحاجب**

**7-الخصائص الفنية للشعر الصوفي :**

- لغة الشعر الصوفي لغة رمزية، غامضة، ومعقدة، فأهم ما يميز الشعر الصوفي خصوصية اللغة التي كتب بها، فقد نزع الصوفية في كتاباتهم نزعة ذاتية عميقة فضربوا في عالم ما وراء الحواس للوصول إلى الله، فجاءت لغتهم معقدة تعقيد رؤيتهم الصوفية ،رمزية بعيدة عن التصريح،غامضة إلى درجة لا يكاد يفهمها القارئ ،كما أن الصوفية عجزوا عن إيجاد لغة تعبر عن تجاربهم وتستقل عن لغة التعبير المألوف، فعبروا عن الحب الإلهي بلغة الحب الحسي وأدواتها وأخيلتها،فكان الحبيب هو المرأة والخمرة والله ،ـكما ابتكروا مصطلحات وألفاظ جديدة لهم يتداولونها فيما بينهم .

-تفرد المتصوفة بمصطلحات صوفية خاصة بهم دون غيرهم وظفها الشعراء في مختلف الموضوعات التي طرقوها

-التأثر بالشريعة الإسلامية كما هو شأن التصوف السنّي

-التأثر بالمصادر الفلسفية والفكرية الأجنبية كما هو شأن التصوف الفلسفي